المحاضرة الخامسة عشر: روبرت شولز ونظرية الصيغ

أولاً: مقدمة

يشغل مفهوم النوع الأدبي (Genre) موقعًا مركزيًا في النظرية الأدبية الحديثة، باعتباره البنية التي تنظّم الإبداع وتوجّه القراءة، فمنذ أرسطو في فن الشعر إلى باختين وتودوروف، ظلّ النقاد ينظرون إلى الأجناس بوصفها أنماطًا أو صيغًا تُساعد في فهم العمل الأدبي ضمن نظام من الخطابات، لكن مع تطوّر المناهج البنيوية والسيميائية في القرن العشرين، تغير مفهوم "النوع الأدبي" من تصنيف جامد إلى بنية دلالية متحركة، وهنا يبرز روبرت شولز (Robert Scholes) كأحد النقاد الذين أعادوا تعريف العلاقة بين الأدب وأنواعه، من منظور بنيوي-سيميائي وتربوي-نظري معًا.

ثانيًا: من هو روبرت شولز؟

وُلد شولز عام 1929 وتوفي سنة 2016، وهو أحد أبرز النقاد الأمريكيين في النصف الثاني من القرن العشرين، اشتغل بالتدريس في جامعة براون (Brown University) وكان من أبرز المساهمين في تطوير النظرية الأدبية والتعليم الأدبي في الولايات المتحدة، من أهم مؤلفاته:

1. لبنيوية في الأدب"

2.الفابولية والميتافكشن"

3.السلطة النصية"

هذه المؤلفات تشكّل ما يمكن تسميته بـ النظرية الشولزية للأجناس الأدبية، لأنها تجمع بين التحليل البنيوي للنصوص والتفكير في طبيعة الأنواع الأدبية وأدوارها المعرفية.

ثالثًا: الخلفية النظرية — البنيوية والسيميائيات

لفهم موقع شولز ضمن نظريات الأجناس، يجب الانطلاق من خلفيته الفكرية:

.1تأثره بالبنيوية الفرنسية:

استلهم من رولان بارت، تودوروف، غريماس، وجينيت فكرة أن النص بنية من العلامات، وأن الأجناس ليست مجرد تصنيفات بل أنظمة دلالية، واعتبر أن دراسة الأدب تعني دراسة "النصوص" بوصفها وحدات في شبكة سيميائية كبرى.

.2السيميائية:(Semiotics)

نظر شولز إلى الأدب كـ"نظام علامات (sign system) "يتفاعل مع أنظمة أخرى (اللغة، الثقافة، الأسطورة....) الأجناس الأدبية في هذا السياق ليست أنواعًا بيولوجية، بل أنماط تواصل ثقافية، تنتج داخل نظام العلامات المجتمعية.

رابعًا: مفهوم "النوع الأدبي" عند شولز

.1النوع كبنية لغوية ودلالية

يرى شولز أن النوع ليس مجرد تصنيف خارجي للنصوص (شعر، رواية، مسرحية)، بل هو صيغة تنظيمية للخطاب الأدبي، فالنوع يحدّد العلاقة بين المرسل (المؤلف) والرسالة (النص) والمتلقي (القارئ)، لذلك، يصبح النوع آلية تواصل، تحدد قواعد إنتاج المعنى وتلقيه.

.2النوع بوصفه "قانونًا للتوقع"

الأجناس عند شولز تشكّل ما يسميه "أفق التوقع القرائي"، فحين يقرأ المتلقي نصًا ما، يكون لديه تصوّر مسبق للنوع الذي ينتمي إليه (قصيدة، قصة، مسرحية....)، هذا التوقّع لا يُقيّد القراءة، بل ينظّمها ويجعل المعنى ممكنًا، بمعنى آخر، الأجناس هي اتفاقيات قراءة، وليست سجونًا جمالية.

.3النوع كنظام مفتوح ومتطور

يخالف شولز التصنيف الأرسطي الجامد (شعر – نثر – دراما)، حيث يرى أن الأجناس تتطور مع الثقافة، وتتداخل فيما بينها عبر ما يسميه "التناص النوعي.(inter-generic intertextuality) " فالرواية الحديثة قد تستعير أساليب الشعر، أو تتضمن خطابًا فلسفيًا، إلخ، وهذا التداخل لا يُعدّ انحرافًا بل هو تجدّد طبيعي في النظام الأدبي.

خامسًا: مستويات تحليل الأجناس الأدبية عند شولز

يقترح شولز أن تحليل الأدب يجب أن يتمّ على ثلاثة مستويات متكاملة:

.1الدال (Signifier) الشكل اللفظي والبنية اللغوية يعبّر عن الصيغة النوعية (الوزن، الأسلوب، النمط اللغوي)

.2المدلول (Signified) المعنى والمحتوى الدلالي يحدّد موضوعات النوع (الحب، البطولة، المأساة..)

.3المرجع (Referent) العالم الخارجي أو الواقع الثقافي يربط النوع بسياقه الاجتماعي والمعرفي

الأجناس الأدبية عند شولز لا تُفهم إلا عبر هذا التفاعل الثلاثي، فهي ليست شكلًا لغويًا فقط، بل شبكة من العلاقات الثقافية والمعرفية.

سادسًا: تصوّره لتاريخ الأجناس الأدبية

في أعماله، يشير شولز إلى أن الأجناس الأدبية تمرّ بثلاث مراحل متعاقبة:

.1مرحلة الأسطورة:(Mythic stage)

النصوص الأولى (الملحمة، الأسطورة، الحكاية الشعبية) كانت تعبيرًا جماعيًا عن التجربة الإنسانية، حيث لم يكن هناك وعي بالنوع بعد؛ كانت الأجناس "عفوية" ووظيفتها تربوية ودينية.

.2مرحلة الأدب الكلاسيكي:

ظهور الوعي بالأنواع: التراجيديا، الكوميديا، الشعر الغنائي، إذ بدأ النقاد في وضع حدود وقواعد، كما فعل أرسطو وهوراس.

.3مرحلة الحداثة / ما بعد الحداثة:

انهيار الحدود الصارمة بين الأنواع، وظهور الأجناس الهجينة (الرواية الشعرية، الميتافكشن، النص المفتوح)، وهنا يقترح شولز أن نفكر في النوع كمجال تحويلي لا تصنيفي.

سابعًا: العلاقة بين الأجناس الأدبية والسيميائيات عند شولز

يعتبر شولز أن النوع الأدبي هو "علامة فوق نصية(meta-sign) "، أي: يوجّه القارئ إلى طريقة قراءة النص،ويمنح النص هويته داخل الثقافة، لكنه أيضًا يتغير تبعًا لسياق التلقي التاريخي، بمعنى أن النوع ليس في النص وحده، بل في العلاقة بين النص والقراءة.

هذا التصور قريب من ما قاله تودوروف وباختين، لكنه عند شولز يرتبط بالبنية السيميائية للخطاب.

ثامنًا: التفاعل بين الأجناس(Transgenericity)

من أهم أفكار شولز الحديثة فكرة التفاعل النوعي:(Transgenericity)

لم تعد الأجناس مغلقة، بل صارت تتداخل وتتبادل وظائفها، فالرواية المعاصرة مثلًا قد تحتوي على مكوّنات من السيرة الذاتية والمقالة والقصيدة، وهذا التفاعل لا يُلغي النوع، بل يعيد تشكيله في مستوى أعلى — كأننا نتحدث عن "أنواع هجينة(hybrid genres) "، وهنا يؤكد شولز أن دراسة النوع الأدبي اليوم لا بد أن تكون دراسة ديناميكية تتتبع عملية التداخل لا الحدود الثابتة.

خلاصة:

يُمكن تلخيص نظرية شولز في الأجناس الأدبية في النقاط الآتية:

.1الأجناس ليست فئات مغلقة بل بنى تواصلية وسيميائية متحركة.

.2النوع الأدبي يوجّه القراءة ويخلق نظام توقّع لدى المتلقي.

.3الأجناس تتفاعل وتتداخل في الثقافة الأدبية، ولا توجد إلا داخل شبكة نصوص.

.4دراسة الأجناس هي طريق لفهم العلاقة بين اللغة، والمعنى، والثقافة.

وفي الأخير يمكن القول إن روبرت شولز يُعتبر من النقاد الذين حرّروا مفهوم "النوع الأدبي" من القيود التصنيفية القديمة، فبدل أن يكون النوع قالبًا ثابتًا، صار عنده نظامًا من العلامات والعلاقات يُعبّر عن التفاعل بين النص والثقافة والقراءة، كما أنه يرى أن مستقبل الأدب هو في فهم هذا التفاعل الديناميكي، حيث كل نصّ هو عملية إعادة إنتاج لنوع سابق في ضوء جديد.وبذلك يضع شولز الأجناس في قلب النظرية الأدبية الحديثة، بوصفها مفاتيح لفهم الأدب والحياة معًا.